



اسم المقال: العقيدة الدينية وأثرها على منهج التفكير السياسي للولايات المتحدة الأمريكية

اسم الكاتب: أ.د. عبد القادر محمد فهمي

رابط ثابت: <https://political-encyclopedia.org/library/100>

تاريخ الاسترداد: 2026/05/24 23:34 +03

الموسوعة السياسية هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت. لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع <https://political-encyclopedia.org/terms-of-use>



العقيدة الدينية وأثرها في منهج التفكير
السياسي للولايات المتحدة الأمريكية

الاستاذ الدكتور عبد القادر محمد فهمي

تقديم:

قاعدة فكرية-سياسية اسهمت، وعلى نحو واضح، في صياغة نمط حياة الشعب الامريكى وطريقة تعامله مع غيره وخصوصاً الدور الفاعل الذي لعبته المؤسسات والنخب الفكرية والسياسية الحاكمة فيها وعبر مرحلة تاريخية امتدت منذ نشأتها وحتى وقتنا الحاضر.

اولاً: المراكز الفكرية للعقيدة الدينية الحاكمة في الولايات المتحدة الامريكية:

حمل المهاجرون الجدد، الذين استوطنوا الارض الجديدة منذ بداية القرن السابع عشر، العقيدة الدينية البروتستانتية الكالفينية التي كانوا يؤمنون بها بهدف تطبيقها في بلد جديد ومجتمع بكر.

وهي العقيدة التي سيكون لها شأن لا ينازع في زرع قيم وافكار مؤثرة ليس فقط في صياغة الشخصية الامريكية على الصعيد الاجتماعي، انما في صياغة العقل الامريكى ومنهج التفكير السياسى الرسمى في السياسة الخارجية والعلاقات الدولية.

يبدو من الصعوبة بمكان، ولاغراض علمية موضوعية، تحليل السلوك السياسى لاية دولة بمعزل عن مكونات بناءها الفكرية. فالفعل السياسى لا يتأتى من فراغ فكري، ذلك ان هذا الفعل، وبغض النظر عن ما اذا كان داخلياً او خارجياً، لا ترتسم معالمه الا وفق معطيات فكرية-ايدولوجية، سواء أكان ذلك في سياق التعامل مع الظواهر او في اطار تحديد ملامح الوحدة الدولية ذاتها والنتائج عنها ذلك السلوك. بمعنى ان السلوك السياسى لاية دولة ما هو في الحقيقة الا انعكاس لمضمون حزمه من الافكار والمبادئ تؤمن بها وتسعى الى ترجمتها على ارض الواقع في اطار تعاملها مع الآخرين.

وبقدر تعلق الامر بالولايات المتحدة فأنها لا تخرج عن هذه القاعدة، اذ سيكون للعقيدة الدينية-الكالفينية، والتي جاء بها المهاجرون الاوائل الى ارضها، دور كبير في بلور

والعمل المنتج داخل الجماعة. والعمل المرفوع الى مصاف الفضيلة يحكم عليه وفقاً لتناججه وبالطريقة البراغمية. ولن يكون النجاح الاجتماعي وكسب الاملاك والخيرات والثروات سوى مكافأة وتجسيد مادي للفضيلة. والمال والثراء حينما يمثلان العمل ويرمز ان للنجاح انما يشهدان على قيمتنا الاجتماعية والدينية. وعندئذ تغدو الثروة علامة التقدير المشروع في المجتمع، كما ان الثراء قابل، في نفس الوقت، لان يكون علامة الاصطفاء الالهي.

مثل هذا الاعتقاد الديني بقدر ما يكون محفزاً للعمل ودافعاً للكسب والثراء، فإنه يقدم تفسيراً لعبادة الثروة والنجاح المادي التي سادت وما تزال تسود الولايات المتحدة. ووفق منطق العقيدة الدينية الكالفينية تصبح الثروة وامتلاكها هدفين متلازمين، وعلى الاغنياء ان، يحافظوا على انجازهم لانهما، أي الثروة والمال، يدخلان كما يقول (توكفيل) في صلب بناء العقيدة الدينية التي بني عليها المجتمع الامريكى. اذ وفق هذه العقيدة الدينية، ان الناس وهم يسعون وراء الحصول على المال والثروة، انما يسعون لمرضاة الله لآخرتهم بسبب عملهم وجهودهم، ويجرون وراء السعادة والحرية لديانهم. اما الفقراء، فأن الاغنياء غير ملزمين بالبحث عن اسباب فقرهم واكتشاف سبل القضاء عليها. ذلك ان الغنى والفقر مسألة قدرية الهية فالاغنياء كتب عليهم العمل والمثابرة والجد، في حين كتب على الفقراء التقاعس والكسل. وكل ما يفعله الاغنياء للفقراء هو تقديم المساعدات والمعونات لهم، دون الحاجة حتى الى وضع البرامج الحكومية

وترى العقيدة البروتستانتية الكالفينية ان الدين هو الضمان الوحيد للفضائل القومية التي تسمح بالنجاح الدنيوي. وان الحياة الآخروية هي امتداد للحاضر، وان الايمان هو الذي ينقذ الانسان فيها وهو نتاج عمله الدنيوي. كما تذهب هذه العقيدة الى اعتبار ان الايمان هو الذي ينقذ الانسان دائماً، وهو الذي يقوده الى الخلاص من كل خطيئة، ومن يكون نصيبهم الخلاص ليسوا كل الناس، انما فقط اولئك الذين يتميزون بايمانهم بالله. فالايان بالله هو طريق الخلاص، وهو القادر على خلق عالم بلا خطيئة. وهنا يكون الايمان بمثابة المعيار المميز بين الخير والشر، بين الانسان الصالح والانسان السيء الذي لا يفقد احترام الآخرين فحسب، انما ليس له مكان بينهم. فالايان هو اساس الفضيلة، والفضيلة هي السبيل الوحيد الى الخلاص والفوز بالعالم الآخر¹. وتربط العقيدة البروتستانتية الكالفينية مسألة الايمان بالعمل. فالايان لا قيمة له، او انه لا يكتمل، ما لم يتحد مع العمل، ذلك اننا لا نعيش في هذا العالم الا لكي نستحق العالم الآخر. وهذا الاستحقاق لا يأتي الا عن طريق العمل النافع الذي يحقق الذات الانسانية وينعم عليها بالخير.

وهكذا، سيتعايش الايمان والعمل على نحو ثابت لكي يقود المواقف الدينية والاجتماعية. ان الطهرانية (التي هي جوهر العقيدة الدينية البروتستانتية الكالفينية) هي دين الفعل والجد

الأمريكي منذ النشأة وحتى وقتنا الحاضر. هذه الملاحظة هي، ان الروح الدينية المفعمة بهذا النوع من الايمان هي التي سادت هذا الوطن منذ نشأته الاولى، وما تزال تعصف به في علاقته بغيره خارج الوطن. فالشعب الأمريكي ومن ورائه فلسفته السياسية ومؤسسات الحكم، وبالرغم ما يدعون من حرية العقيدة وفصل الدين عن الدولة، هم الاكثر نشاطاً في الدعوة لمذهبهم الديني السائد حتى بين المذاهب المسيحية المخالفة. ولعل اليمين المحافظ او من يسمون بالمحافظين الجدد، هم خير دليل على صحة هذه الظاهرة في الحياة الدينية الاجتماعية والسياسية الأمريكية.

الا ان العقيدة الدينية البروتستانتية الكالفينية التي يؤمن بها الطهريون او الآباء المؤسسون لها وجه آخر لعله اكثر اهمية وخطورة من القيم الاخلاقية المبنية على الايمان والفضيلة والعمل الصالح. فالعقيدة الدينية لا تقتصر على هذه المفاهيم ولا تتقيد بحدودها انما رافقتها عامل آخر له وظيفة رسالية تبشيرية ذا طبيعة توسعية. بمعنى ان الدين لا يقوم بعملية التوحيد الاجتماعي داخل المجتمع الأمريكي فحسب، بل ان امريكياً، وبفضل قيمتها الدينية التي ترتقي بها الى مكانة لا تضاهيها امم وشعوب اخرى، مكلفة بانجاز وظيفة رسالية لنشر هذه القيم خارج حدودها الاقليمية، ومثل هذه الوظيفة هي موضع اختيار الارادة الالهية التي لا دخل للارادة الانسانية فيها سوى الانصياع لها والالتزام بمشيئتها. فتمتة اعتقاد راسخ وقناعة سائدة في المجتمع الأمريكي، وخصوصاً على مستوى رؤسائه، تذهب الى ان الدولة الجديدة هي من اختيار الرب، وان الشعب الجديد هو شعب الله الذي اختاره بعناية فائقة ضمن خطة الهية مدبرة للكون².

والميزات المرصودة لذلك. (وهو هو منهج بوش الابن المحافظ دينياً والمجدد في معالجته للمسألة الاجتماعية).

ويرى الطهريون ان لابد من محاربة الشر وجعل الخير ينتصر عليه، وان تأخذ هذه العملية بعدها الشمولي لتطهر المجتمع بكامله من كل شر كامن فيه لاجل خلاصه ووضعه على طريق الفضيلة والصواب. وعندما تغد القارة بلا شوائب وبلا شرور، لابد من ايجاد قارة اخرى والمضي الى حدود جديدة ونقل كلام الله وتمدين (الآخرين). ان الاطهار هم جند المسيح، والامريكيون هم (جنود الديمقراطية فوق مقاييس العالم) وهكذا وبهذا المنطق تصفي القداسة على الامبريالية الثقافية مسوغاً دينياً.

وعلى الدوام كانت الطهرانية مطبوعة بهذا الهاجس الرسالي، بهذه التدينية التي تتجسد في الخير لمحاربة الشر، وفي ضرورة العمل لحساب ما يعرف بأنه الخير. وبالتالي فإن الطهرانية راسخة في اعماق الحياة اليومية التي يعيشها المجتمع، أي في الشعور الجمعي، فهي ستدفع المجتمع على نحو عميق، وهي لا تزال قائمة وتعمل بفاعلية حتى يومنا هذا لأنها اصبحت جزءاً وثيق الصلة بالشخصية الأمريكية ونمط حياتها وطبيعتها سياستها.

في ضوء ما تقدم، تبرز امامنا ملاحظة جديدة بالتأمل، اذ انها ستكون المؤشر على منهج التفكير الذي حكم السلوك السياسي الاستراتيجي

دول العالم وهدايتها وانقاذها من الجهل والظلام. كما ان هذه الشراكة التعاهدية جعلت من الشعب الامريكى الطهوري مجتمعنا دينياً يمثل كنيسة القديسين الارضية المرئية وبالتالي فأفراد هذه الكنيسة هم مواطنوا مملكة الله المرتقبة.

اذن احتل مفهوم (الخطة الالهية) موقعاً مركزياً في معتقدات وسلوك المجتمع الطهوري الاول ورسخ الاعتقاد بأن يد العناية الالهية تتحكم بأعمالهم ومصيرهم كما تتحكم بجميع الامور والاحداث في هذا الكون. ويذهب المؤرخ الديني للامة الامريكية (كوتون ماذر) الى ان الله اصدر اوامر الى المؤمنين من شعبه من الامة الانكليزية وجعلهم يقررون بالاجماع ان يهاجروا الى العالم الجديد (امريكا) وكان هدفهم الوحيد هو حمل مسؤولية تنفيذ قضاء الله. ومما جعل هذا المفهوم، مفهوم الخطة الالهية اكثر عمقاً وتأثيراً لدى المستوطنين الاوائل هو انهم والاجيال التي تلتهم، اعتقدوا ملزمين ان لهم دوراً ومكاناً مركزيين في هذه الخطة، حتى ان الله انتقامهم بالذات لتنفيذ ارادته في هذه الخطة. لذا نجد ان الحجاج الطهوريين، والاجيال الامريكية التالية، اكثر ما يشبهون انفسهم بأنهم (الشعب المختار) لانجاز (رسالة عالمية) وفق خطه الهية لصياغة الكون وتصحيحه³.

هذه الافكار والمعتقدات تم تبينها منذ وقت مبكر على مستوى الرؤساء الامريكان، فالرئيس الاول (جورج واشنطن) وضع فكرة التدخل الالهي والعناية الالهية بالقول (ما من شعب مدعو اكثر من شعب الولايات المتحدة الى شكر الله وعبادة اليد الخفية التي

ان هذه الفكرة المرتكزة على مفهوم (الارادة الالهية) او (الخطة الالهية للكون) سيكون لها شأن كبير في صياغة البناء الفكري الثقافي الديني للمجتمع الامريكى منذ نشأته وحتى وقتنا الحاضر. كما سيكون لها تأثير واضح على السياسة الرسمية وتوجيه السلوك السياسي الخارجي للولايات المتحدة الامريكية نحو العالم الخارجي. كما ان هذه الفكرة على قدر كبير من الالهية لما لها من خاصية التعريف بالعوامل المكونة لصورة الامريكيين الذاتية وادراكها لشخصيتهم وما تمتاز به من أسلوب في التعامل مع الآخرين. فقد اعتقد المهاجرون الاوائل والطهوريون بوجود خطة الهية شاملة للعالم، وان هذه الخطة هي من تدبير الارادة الالهية يلعب فيها الطهوريون بمجرتم الى العالم الجديد دوراً مهماً وان امريكا كانت موجودة في عقل الله لاهداف محددة منذ بداية الخلق.

ويعتقد الطهوريون البروتستانتيون الذين غادروا اوروبا واستوطنوا العالم الجديد انهم شعب الله المختار، اختارتم العناية الالهية للخلاص والحرب من فساد العالم القديم وآثامه لانشاء مملكة الله على الارض. وهم بذلك يشبهون انفسهم بقبايل اسرائيل في هروبها من مصر الى ارض كنعان. ويعتقد الطهوريون ايضاً، انهم على علاقة تعاهدية مع الله، وهم شركاء في تنفيذ مهمة حددها الله لهم في هذا العالم. وان هذه الشراكة التعاهدية مع الخالق تشمل مهمة خطيرة عاجلة وهي تنوير بقية

(معززة بأيدولوجية لن يزعزعها شيء ابداً . وان الولايات ستكون مولدة لمجتمع عالمي . فالمؤسسات والعادات والمبادئ الامريكية مخصصة للتطبيق في كل مكان ولحو ما بين البشر من اختلافات اينما كانوا (وربما كان هذا التبشير هو الاول لمفهوم العولمة وفق قياسات النموذج الامريكي). ان امريكا النموذجية هي في رأي مواطنيها اعلى كعباً من الامم الاخرى، وهي بذلك مدعوة الى ملء مركزها فخائياً).

ولا يخرج الرئيس الامريكي (بوش الابن) عن هذه القاعدة التي وضعها اسلافه من رؤساء الولايات المتحدة عندما يقول (لا يمكن للمرء ان يكون رئيساً لهذه البلاد من دون قناعة اننا الامه الوحيدة الخاضعة لاوامر الله)⁴ . وكانت هذه الافكار في صلب عقيدة الطهورين التي تقر انه: لئن كان الله قد سمح بأن يجتمع في ارض امريكية شعب من رجال ونساء متميزين، فان ذلك قد تم بفعل الارادة والعناية الالهية التي منحتهم (رسالة حكم العالم) ذات يوم.

وهكذا، قبل وبعد تأسيس الدولة الامريكية عام 1776، يفسر اجماع الخطابات:- ان امريكا، الديمقراطية، النموذج الذي اختاره الرب، لا يمكنها الا ان تكون المرشدة للطريق الذي يجب السير عليه، والقائدة لموكب أمم الكون. ولم ير الآباء المؤسسون، ثم من بعدهم النخب السياسية والفكرية والثقافية والدينية والعلمية في كل العصور، ان الامور يمكنها ان تكون مغايرة لهذا الاعتقاد. اذن كان الطهوريون الامريكيين، ومنذ أيام الاستيطان الاولى، يؤمنون بفكرة غيبية غامضة لا تقبل الا التفسير الاحادي. ويعد الطعن بها ضرباً من الكفر

تقود امور الناس. فكل خطوة جعلتهم يتقدمون على طريق الاستقلال الوطني تبدو موسومة بسمه التدخل الالهي). كما كان هناك كتاب ومؤرخون امريكان بالغوا في تمجيد الشعب الامريكي المختار من قبل الله. فالمؤرخ الامريكي (دانيال بورستن) يرى (ان الشعب الامريكي هو تمجيد لانجاز الله، وان امريكا هي الفردوس الموعد على الارض من قبل الله). ويضيف في مبالغته لمكانة الشعب الامريكي فيقول (انه تجسيد لارادة الله لبناء مجتمع جديد واصيل... ولم يكن شعب اكثر يقيناً من سيره على الصراط المستقيم من الشعب الامريكي الذي هو شعب الله، وكل خصم له يعد عدواً لله). اما الكاتب (وليام مستوغون) فقد كتب عام 1687 (ان امريكا امة جرى اختيار مواطنيها بعناية من قبل الله). وهناك فكره مماثلة أفصح عنها (جونسون سوليفان) عام 1845، يقول فيها (ان الثورة العالمية التي ستبتكر مجتمعاً جديداً سيولد في الولايات المتحدة بأمر من الله الذي يقف الى جانب الامريكيين).

والولايات المتحدة في نظر الرئيس الامريكي (جون آدمز 1735-1826)، (هي المكان المخصص لتحقيق سعادة الجنس البشري. وفي نظر كل الامريكيين ان امريكا هي هذا المكان المحظوظ، هذه الارض المحمية بالعناية الالهية، والتي تنزاح نحوها الحضارة، وهي مرحلة انتقالية نحو العالمية، نحو تحرير الارض بكاملها). ويذهب الرئيس (بنيامين فرانكلين) الى اعتبار ان امريكا

والمخرج عن نصوص الكتاب المقدس. هذه الفكرة، والتي سيكون لها شأن كبير في ترسيخ قناعات ثابتة في عقلية المجتمع الأمريكي، تؤمن بمفهوم (التدبير الالهي للكون) والذي يذهب الى ان الله ضمن تقديره وتدبيره لخطة الكون والتاريخ، وضع لأمريكا مهمة مقدسة خاصة بها. بمعنى ان هناك تصميم الهي في صياغة الكون، وان أمريكا، وفق هذه الصياغة مكلفة برسالة ربانية لان تكون قائدة لهذا العالم ويقول (ويتشوب هدرسن) تأكيداً لهذا الاعتقاد (كان كل مواطن انكليزي قد تعلم منذ طفولته ان ينظر الى التاريخ على انه مقرر مسبقاً بالقدر الالهي)، لذلك لم ينظر احد الى الاستيطان في أمريكا على انه امر عادي، فمنذ عام 1613، اعلن المؤرخ الأمريكي (ويليم سترتشي)، (ان الله قد حفظ أمريكا محبأة لهدف في ذهنه وان الذين انشئوا المستوطنة الصغيرة في فرجينيا لم يكونوا يعملون الا كوسيلة لتنفيذ ارادة الله وتدييره، وان الله قرر اكمال مهمتهم في سعيهم الى اتمام تحقيق خطته للكون التي يوجه التاريخ كله نحوها)⁵.

المعتقدات الدينية، فأعطته ولاءات مشتركة واهدافاً واحدة وشجعت على بروز قيادة موحدة للامة، فكان العامل الاقوى في توحيدها، رغم ان تعبير (الامة) بعناصره البنائية التاريخية-الثقافية ودلالاته الميثولوجية لا ينطبق كثيراً على الامريكان الذين ينتمون الى اعراق وثقافات وأصول مختلفة ومتنوعة.

ان تعبير (امة واحدة في طاعة الله) احتل مساحة كبيرة في الخطابين الديني والسياسي في الولايات المتحدة منذ منتصف القرن العشرين وعلى نحو مكثف. فنشيد قسم الولاء الأمريكي، والخطب السياسية المعدة لاستلام منصب الرئاسة والتي ألقاها جميع الرؤساء الأمريكيين، حرصوا جميعهم، وبشكل تقليدي، على ذكر فضل الله وبركاته التي احاط بها الامة الأمريكية، وان الامة الأمريكية والجمهورية الأمريكية هما جزء من (تصميم التدبير الالهي). بل ان الامر تجاوز ذلك ليسمح لدولة تؤمن بالحياة المادية ان تضع حتى على عملتها الوطنية عبارة (نؤمن بالله GOD WE TRUST IN).

ان الملاحظة التي تستدعي الانتباه وتثير نوعاً من الغرابة هي ان المجتمع الأمريكي يجمع ما بين خاصيتين متناقضتين يصعب التوفيق بينهما. فهو مجتمع علماني يفصل بين الدين والدولة، ويمنع دستوره، الدستور الأمريكي وتعديلاته، اعتماد الدولة ديناً معيناً، ويمنع ايضاً تداخل صلاحيات وممارسات الكنيسة والدولة، الامر الذي دفع الى الاعتقاد ان أمريكا امة علمانية بحتة لا يؤثر الدين فيها على سياسة الحكومة، ولا تتدخل الحكومة بالشؤون الدينية. الا انه، أي المجتمع الأمريكي، هو ايضاً مجتمع متدينين يشكل المتدينون فيه نسبة تتجاوز 80%،

هذه المعتقدات الدينية لعبت دوراً كبيراً في خلق نوع من التلاحم الاجتماعي في المجتمع الأمريكي ويجاد رباط محكم ساعد على توحيد ذلك المجتمع واعانه كثيراً على التغلب على النزعات الانفصالية والمصالح الاقليمية. كما اضفت هذه المعتقدات الدينية مشاعر واهداف موحدة على المجتمع الأمريكي بكل مكوناته السلا متماثلة الا

هذه المعتقدات الدينية لعبت دوراً كبيراً في خلق نوع من التلاحم الاجتماعي في المجتمع الأمريكي ويجاد رباط محكم ساعد على توحيد ذلك المجتمع واعانه كثيراً على التغلب على النزعات الانفصالية والمصالح الاقليمية. كما اضفت هذه المعتقدات الدينية مشاعر واهداف موحدة على المجتمع الأمريكي بكل مكوناته السلا متماثلة الا

تسيطر عليهم معتقدات دينية تثير تساؤلات كتلك التي أثارها النظريات الالهية التي تربط علاقة الدين بالدولة والتي قوضت اساس شرعيتها النظرية الديمقراطية (افكار لوك وهوبس وروسو ومنتسكيو)... ومع ذلك، كانت وما تزال المعتقدات الدينية مؤثرة بشكل واضح على عقلية المجتمع الامريكي مما اتاح للنخب السياسية الحاكمة تمرير سياسات تحت غطاء (العناية الالهية) و(الاختيار الرباني لهذه الامة ان تقود العالم) والى ما غير ذلك....

وفي الواقع، ان ما اعطى المجتمع الامريكي (ومنذ بداية تشكله من سكان متعددي الجنسيات والاعراق، سواء كانوا من انكلترا او من اسكتلندا، او المانيا، او من أي مكان بالعالم، وحتى وقتنا الحاضر)، ان ما اعطاه نظرة واحدة متفق عليها ولا خلاف حولها، هو هذا الادراك اليماني والتتابع التكراري في الخطاب الديني - الثقافي في ان الامريكان، وبعد استقرارهم في ارض اختارها الله لهم، انهم يمثلون اختياراً الهياً بعد اجتماعهم وتواجدهم في ارض واحدة، وانهم مكلفون برسالة رسمها الله لهم، وانهم جميعاً مدعوون الى مهمة مقدسة منحها الله لهم. وكما يذهب (لايمان بيتشر) كان الجميع يحملون اعتقاداً بأن (الولايات المتحدة قد أسست في وضع يمكنها من التمتع بالحرية الدينية وان ذلك كله كان جزءاً من خطة الله لاعطاء العالم نموذجاً يقتدى به)⁶.

هذه الخاصية المركبة للمجتمع الامريكي، الذي يجمع ما بين علمانيين ومتدينين، يمكن وصفها بأنها رابطة لدين يمكن وصفه او تسميته بـ (الدين المدني) الذي يلتقي عنده الجميع وهذا (الدين المدني) كما يصفه فؤاد شعبان، هو نوع من القناعة الشعبية لا تختلف نهاياتها الفكرية-اليمانية عند العلمانيين والمتدينين. هذا الدين المدني يجمع معظم الامريكيين ضمن مظلة معتقدات واحدة لا تنتمي الى أي مذهب او كنيسة بعينها. هذا الدين المدني، كما يقول (روبرت بيلا) كان وما زال نقطة التقاء بين اعمق المعتقدات والالتزامات الدينية والفلسفية الغربية، وبين المعتقدات الشعبية لدى عامة الامريكيين. كما يعرف (روبرت بيلا) الدين المدني بقوله: ان الدين المدني في افضل حالاته هو الادراك الاصيل للحقيقة الدينية الكونية السامية كما تظهر للمرء في التجربة الامريكية، وهو بذلك يشكل القاسم المشترك للاكثرية المعتدلة من الامريكيين على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم، وحتى الذين لا يمارسون الفروض والطقوس الدينية. وهو ايضاً دين امريكي بحث يوجد على مستوى الادراك الشعبي جنباً الى جنب مع جميع المذاهب والكنائس، وهو ايضاً يملك بعداً روحياً خاصاً به ومستقلاً عن المذاهب الاخرى. وفي هذا الدين الشعبي يبقى مفهوم (الله) في موقع مركزي لا خلاف عليه مهما اختلفت المعتقدات الشخصية للافراد. وان الجميع يقبلون به كأمر من المسلمات. وحتى على مستوى رؤساء الجمهورية الامريكية، فانهم حرصوا جميعاً منذ واشنطن وحتى بوش الابن على ان تشمل خطبهم وتصريحاتهم

للكون، يقود الى الخلاص الديني المتمثل بما يعتقد انه اقامه مملكة الله في الارض.

هذا المزج بين التفكير الديني المدني والتفكير السياسي عمل على تطويع الدين لاهداف واغراض سياسية، فأصبحت قضية الحرية الامريكية هي قضية الله (المزج بين ما هو سياسي وديني). ومثل هذا المفهوم يسهل علينا ان ندرك وعلى سبيل المثال المغزى الحقيقي لتصريح (جون اشكروفت) الذي اصبح وزيراً للعدل فيما بعد، في خطاب القاه عام 1999 في جامعة (بوب جونز) المسيحية اليمينية والذي قال فيه (لا يوجد في الولايات المتحدة الامريكية سوى ملك واحد هو الملك يسوع المسيح القادم من السماء يتربع على عرش مملكته الالفية في الارض).

ان التداخل بين ما هو ديني وسياسي يمكن ان نلمسه في تطوير فكر الطهوريون. ففي بداية تشكيل فكرهم الديني كانوا يركزون على فكرة تنفيذ ارادة الله في هداية الامم المسيحية تمهيداً لنزول مملكة الله. ورغم ان هذه الفكرة ما تزال باقية، الا ان الاولوية بعد تأسيس الدولة الامريكية اصبحت تتركز في وضع امريكا كمنارة للحرية والديمقراطية يستهدي بها العالم أجمع الى مملكة المسيح السياسية.

كان هدف الطهوريين دينياً، ليصبح بعد ذلك هدفاً سياسياً، يتمثل بنشر مبادئ الديمقراطية والحرية في العالم. وكان هدف الامريكيين في فترات الاستيطان الاول تأسيس (مملكة الله المباركة)، واصبحت مهمة الدول المستقلة تأسيس مملكة الله

على هذا المفهوم الذي هو موضع قدسية لدى الجميع، كما تستمد اوربا منه ايضاً قدسيتها ومكانتها الخاصة بين الامم باعتباره هبه من الله.

وهكذا، بقيت العلاقة بين الدين والسياسة في امريكا، على مر الزمن، علاقة وطيدة بشكل واضح. والمواطن الامريكي، رغم ما يدعو اليه الدستور من فصل الدين عن الدولة، لم ير أي تعارض او نزاع بين الاثنين. وهذا الوضع الفريد يختلف كثيراً عما جرى في مناطق وبلدان اخرى من العالم حيث يتداخل الشأن الديني بالشأن السياسي الى حد الصراع والاحتراب الذي لا يعرف نهاية يستقر عندها لتأكيد ايهما أكثر شرعية ومشروعية في تحديد مرجعية العمل السياسي، هل هي السلطة الزمنية التي يفترض ان يكون مصدرها الشعب، او السلطة الروحية التي يكون مصدرها ارادة تفوق وتسمو على ارادة البشر.

وعليه كان من السمات التي اتصف بها الفكر السياسي الامريكي منذ البداية، انه رغم استقلال الدين المدني عن الدين الروحي، فهما مع ذلك مرتبطان بعلاقة وثيقة، فكلاهما، كما اعتقد الامريكيون، يقعان ضمن التدبير الالهي للبشرية. كما ان رؤاهما للعمل السياسي والخلاص الديني غالباً ما اختلطا معاً ودعم كل منهما الآخر. فالعمل السياسي الذي يتوافق مع الارادة الالهية، والذي لا يخرج عن خطه الله التدبيرية

العظيمة الامريكية نموذجاً يفترض ان تقتدي به بقية الامم الاخرى.

وهكذا، فأن الخطاب السياسي الامريكي الحديث اصبح يستعمل بتكرار عبارات ورموز الكتاب المقدس فكل خطاب القاه رئيس امريكي في حفل استلامه لمنصبه يشمل فقرة او اكثر تعبر عن الايمان العميق بفضل الخالق على امريكا وعن الشكر له على نعمته ورعايته، وان يعم هذا النموذج على دول العالم الاخرى. ومنذ ايزنهاور وحتى الآن، صرح الرؤساء بدور الدين في حياتهم وحياة الامة. هذه كلها صفات وفضائل خص الله بها امريكا دون غيرها من الامم، وهذا هو مصدر الاعتقاد بمكانة امريكا الخاصة في خطة الالهة.⁷

وما تجدر الاشارة اليه. ان هذه النظرة الدينية وظفت باستمرار من قبل السكان النازحين الى القارة لتسويغ وتبرير المشروع الامريكي الاستيطاني في ارض لا تعود ملكيتها لهم وفي تعاملهم الوحشي مع سكان البلاد الاصليين (الهنود الحمر) مما ادى الى اباداة معظمهم فضلاً عن الاستيلاء على ارضهم. كما استعمل الامريكيون هذه المبادئ والافكار الدينية في صياغة مفهوم (القدر المبين) بالتوسع الاستيطاني للاستيلاء على كل الاراضي غرباً وشرقاً، شمالاً وجنوباً كما استعملوا هذا المفهوم ايضاً في المشاريع التبشيرية التي تعتبر الآخرين، داخل

الحدود وخارجها، منحطين ومتأخرين وتعتبرهم حقلاً مشروعاً (للتغيير والهداية).

ولابد من الاشارة ايضاً ان الدعوات الاولى حول مفاهيم (القدر الالهي) و(عظمة امريكا) و(الرسالة الالهية المكلفة بها امريكا حيال العالم) وغيرها، ينبغي ان ينظر اليها على أنها غير مرتبطة بمرحلة تاريخية معينة، انما هي مكلفة بانجاز وظيفة محددة ما تزال فاعلة حتى يومنا هذا. وهنا تكمن خطورة هذه الدعوات. ذلك انما تضع امريكا دائماً في حالة تحد ومواجهة مع الآخرين لفرض ارادتها عليهم. ومثل هذا الخطر كان قد نبه اليه العديد من المفكرين والسياسيين في امريكا ذاتها حتى قبل انهيار الاتحاد السوفيتي كما ذهب استاذ التاريخ (روبرت بيل) منذ عام 1967 الى القول (ان القضية ليست قضية توسع استعماري فقط، بقدر ما هي ميل الى الهيمنة على جميع الحكومات والاطراف في العالم التي تدعم سياستنا ومصالحنا الآنية او التي تحتاج الى مساعدتنا، حيث نسارع الى استعمال مفاهيم الديمقراطية وقيم الحرية وحقوق الانسان... وهكذا تصبح الدول التي تقف في صفنا في وقت معين انما دول تصطف مع العالم الحر وقوى الخير).⁸

هذا التفكير الذاتي بالعظمة وحمية التفرد يرافقه امر خطير هو، انه لكي يستمر هذا التفكير النمطي وتفعيل وظيفته لا بد من وجود خصم، او افتعال هذا الخصم او انتاجه. في البداية، كان الخصم يتمثل بكل شيء يقف امام مشيئة الله في ان تكون امريكا هي الارض التي اختارها للظهورين او الآباء

اوقفوا (ضدنا) مع قوى الشر. ويصبح من الضروري في هذه الحالة اللجوء الى الجبهات العسكرية التي تصور على انها (دفاع عن قيم الخير التي تتعرض للخطر) وعن (العالم الحر) ضد من يتهدد هذا العالم. **ثانياً: المحافظون الجدد، فكر تسلطي يحكم العالم:**

يمثل المحافظون الجدد، او كما يسمون بـ(اليمين المسيحي المتطرف)، حركة فكرية متشددة نشطت بشكل ملحوظ منذ العقد الثاني من القرن العشرين، الا ان جذورها الفكرية مستمدة من الحجاج، او الآباء المؤسسون، او الطهوريون الاوائل الذين اعتنقوا البروتستانتية الكالفينية وشكلوا البذرة الاولى للمجتمع الاستيطاني في امريكا. والمحافظون الجدد، باعتبارهم بروتستانتين وكالفنيين، يؤمنون بالفكر الاصولية وبالعهد القديم والجديد من الكتاب المقدس الذي يتضمن وفق معتقداتهم، تنبؤات ستتحقق عاجلاً ام اجلاً، ضمن خطة الهية للكون. كما يعتقدون بالفكر التبديرية والتي تذهب الى ان الاحداث مدبرة بفعل الارادة الالهية. هذا التيار الفكري الديني المسيحي-اليميني المتطرف والملتزم بحرفية الكتاب المقدس ظهرت بوادره في امريكا في العقد الثاني من القرن العشرين وفي اوائل القرن الواحد والعشرين، ووصف قادة هذا التيار انفسهم واتباعهم بالاصوليين بانهم يعودون الى اصول الدين، بما في ذلك النصوص الدينية وتعاليم المسيح وتلاميذه الروحية والاخلاقية والاجتماعية. واعتبروا ان الديانة البروتستانتية بوضعها الحالي قد خرجت عن سياقها

المؤسسين. وبعد انجاز هذه المهمة، جاءت مسألة التوسع لنشر (الفضيلة الامريكية) و(النموذج الامريكي) الى العالم وكان الخطر يتجسد في كل من يقف امام هذه الرسالة⁹... وبعد الحرب العالمية الثانية تمثل الخصم بالشيوعية والمعسكر الاشتراكي والقوى المتحالفة معه، جميعهم وصفوا بأعداء الحرية والديمقراطية وغيرها من القيم التي يدعيها الامريكيون لانفسهم، واتخذ الخطر تسميات عده (امبراطورية الشر) او (محور الشر) او (جيش الشيطان).

وبعد غياب الخطر الشيوعي، والخطر الاحمر، كان هناك الخطر الاخضر او خطر الاصولية الاسلامية وعندما لا يتوفر خصم بهوية معينة، اولا يمكن تعريفه بموقع جغرافي محدد او تجمع انساني بعينه، يوصف (مصدر الشر) بأوصاف اقل تحديداً ولكن اكثر عمومية وتعقيداً. ويكون كفاح امريكا، كما نرى اليوم، ضد (الارهاب) و(الاشخاص الشريرين) و(الدكتاتورية والدكتاتوريين) و(اولئك الذين يكرهون الحرية ويكرهون طريقة حياتنا). وتمتد مساحة هذه الكفاح وتتسع بفضل عمومية هذا الخصم فتشمل كل القوى (التي تكره الحرية والديمقراطية وقيم الخير)، او التي تدعم الارهاب او تؤويه او حتى التي تسكت عنه. وبهذا، يعطي الامريكيون انفسهم، ضمن هذا الاطار الخير والمعاد للشر، الحق لضم أي طرف يريدون الى هذا العدو، ولا يبقى امام الآخرين في العالم الا ان يكونوا (معنا)

المقدس) ويعتبر ان المقصود بها (اسرائيل) وان الله اعطاها كوطن لشعبه المختار. وهنا يكون (الكتاب المقدس) هو حلقة الربط بين اليمين المسيحي واليهود باعتبارهم شعب الله المختار، وان (اسرائيل) هي الوطن الذي منحه الله لهم باعتبارها تمثل ارض الميعاد وان تأسيس دولة لليهود في ارض الميعاد سيمهد للمحيي الثاني للمسيح. بمعنى ان عودة اليهود الى ارض الميعاد التي وعد بها الرب، ومن ثم تأسيس دولة فيها تضمهم (كما جاء في الكتاب المقدس) هو الشرط الاساس لظهور المسيح المخلص، الذي سيملاء الارض عدلاً وسلاماً.

من هنا، نجد ان اليمين المسيحي يربط رطاً مباشراً، استناداً الى حرفية الكتاب المقدس، بين يهود اليوم ودولة اسرائيل، ثم يطبقون نبؤات الكتاب المقدس وخطة الله بأكملها على الاحداث المعاصرة التي تتعلق بأسرائيل بالدرجة الاولى. وفي ضوء عملية الربط هذه بين اليهود ومكانتهم في الكتاب المقدس، وتفسير النبوئين كما ورد فيه من وعود الرب لليهود بأرض الميعاد، وكونهم شعب الله المختار، يمكن ان نفهم الاسباب الحقيقية لدعم اليمين المسيحي لدولة اسرائيل ولنشاطها التوسعي في المنطقة العربية. اذ تعتقد هذه الفئات اليمينية المسيحية اعتقاداً راسخاً بأن دولة اسرائيل السياسية هي دون شك ارض الميعاد التي وعد الرب بها شعبه المختار كما جاء في الكتاب المقدس بنوئته وتفسير نصوصه الحرفية. وترى هذه الفئات في انشاء دولة اسرائيل تحقيقاً لجزء رئيسي من خطة الاله للكون ولنهاية الزمان التي ستتحقق بمحيي المسيح.

وهكذا نجد، انه منذ ان تأسست دولة اسرائيل السياسية في الاراضي المقدسة دخل اليمين المسيحي

المطلوب واخذت تشوه الدين الصحيح لذا ينبغي الرجوع الى عصمة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد والى التفسير الحرفي لنصوصه باعتبارها وحي من الله او الروح القدس. لذا فهم يدعون الى القراءة الحرفية للكتاب المقدس ودقة النبؤات المقدسة بكل تفاصيلها، وهم يؤمنون بأن هذه النبؤات سوف تتحقق على الارض. كما يؤمنون بجمتية الصراع بين قوى الخير (جيش المسيح) وقوى الشر (جيش الشيطان)، وان الخير سينتصر على الشر في معركة (هرمجدون).

ينطلق الفكر النبوي الذي يؤمن به اليمين المسيحي، او المحافظون الجدد، من مبدأ اساسي هو ان الكتاب المقدس بجميع اسفاره وكتبه هو كلام الله المنزل، لذا فهو معصوم بكلامه وحروفه من الخطأ. كما ان النبؤات التي جاء بها هي الاخرى تتميز بعصمتها، فقد جاء في كتاب بطرس (1:21) (النبؤة لا تصدر ابداً عن ارادة البشر، ولكن البشر يتحدثون بوحي من الله. وكان هذا الوحي حمله اليهم الروح القدس). كما جاء في قاموس الكتاب المقدس (الكتاب المقدس هو كلمة الله في كلمات الانسان) وان (الكتاب المقدس هو نفس الله). ويشير قاموس الكتاب المقدس (الذي يربط بشكل تلقائي بين مفاهيم الكتاب المقدس برموز وتعابير لها مكانة دينية- روحية-قيمة عند اليهود والحركة الصهيونية مثل، اسرائيل، وكنعان، وارض الميعاد، شعب الله المختار) يشير القاموس الى عبارة (اراضي الكتاب

مرة اخرى في الثمانينات من القرن العشرين وتحديدًا في فترة رئاسة الرئيس الامريكى (رونالد ريغان) لتكون بمثابة منهاج عمل في العلاقات الدولية ورسم السياسة الخارجية للولايات المتحدة الامريكية اذ كانت خطبه السياسية غالباً ما تتضمن عبارات مثل (امريكا المدينة على الجبل في مواجهة امبراطورية الشر) وان انتصار الخير على امبراطورية الشر سيتحقق في معركة هرجمجدون).

اما في عهد رئاسة بوش الاب، فقد ذكر عام 1992، وبعد حربه على العراق عام 1991، ان احد اصدقائه من رجال الدين الاصوليين نصحه بأن يشن الحرب على العراق، وانه بارك هذه الحرب، وقد عمل بهذه النصيحة. اما بوش الابن فقد كان اكثر ايماناً وتشدداً بالعقيدة الاصطفائية الاستعمارية، وان الله اختار الشعب الامريكى للمباشرة في عملية (خلاص العالم). ويشير الكاتب (مايكل اورتيزهيل)، ان بوش كان مؤمناً بفكرة المحيى الثاني للمسيح ونهاية الزمان، وان الوصية الوحيدة لانقاذ العالم هي ان يستولي عليه شعب الله، وان الشعب الامريكى هو الذي اصطفاه الله ليحكم العالم. وان الاعتقاد الراسخ لدى بوش انه شخص اختاره الله ليعيد الارض الى سيطرة الله.

اما الصحفي (بوب وود ورد) فقد ذكر في مؤلفه (الرئيس بوش في حالة حرب) الصادر عام 2002 ان احداث الحادي عشر من ايلول 2001 أثارَت مشاعره الدينية العميقة، وان هذه المشاعر اعطته الحافز لاعلان الحرب. وانه اعلن في الكاتدرائية

المتطرف حلبة السياسة الخارجية، ومارس ضغوطاً مستمرة على الادارات الامريكية المتعاقبة لدعم الدولة اليهودية ومخططاتها. وقد صرح معظم قادة اليمين المسيحي المتطرف وكتبوا عن ان قضية اسرائيل هي قضية امريكا، وانهم بالاضافة الى اعتقادهم بأن لامريكا مصالح حيوية واستراتيجية في دعم اسرائيل، يؤمنون بأن اسرائيل هي الجزء الاساس من خطة الله للكون، وان امريكا موكلة بمهمة مقدسة لدعم اسرائيل تمهيداً لتحقيق بقية نبوءات آخر الزمان بعد ان تأسست دولة اسرائيل في ارض الميعاد.

ان الخلاصة التي نريد الوصول اليها، ان العقيدة الدينية للمحافظين الجدد قائمة على الايمان بفكرة التدبير الالهى للكون، او ان هناك خطة مدبرة للكون وهذه الارادة تسير الاحداث من خلال اختيارها لاشخاص يمارسون وظيفة تتحدد بترجمة النبوءات الى ارض الواقع، والتي من شأنها ان تعجل بالظهور الثاني للمسيح (كما يدعي بوش الابن في ان الرب اختاره لاداء مهمة مكلف بها) وان المجتمع الانساني تحكمه ارادتان، ارادة الخير، و ارادة الشر. وهاتان الارادتان هما في حالة صراع سينتهي بانتصار ارادة الخير، التي يتزعمها الفكر المسيحي اليميني بدعائه وانصاره ورموزه السياسية.

الا ان الملاحظة الجديدة بالانتباه هي، انه على الرغم من ان هذه الافكار والمعتقدات الدينية التي تبناها اليمين المسيحي المتطرف تعود الى منتصف القرن التاسع عشر، الا انها نشطت

قال بوش (لو ادركنا الاساليب والمقاصد الالهية لكنا نثق بها)¹².

ويصف (جاكسون لير) عقلية الرئيس بوش واعتقاده بأن الله يعمل في كل شؤون الكون، وهو يدعو الولايات المتحدة لقيادة حملة صليبية جديدة في الشرق الاوسط، (ان الامور لا تتحرك بالمصادفة، بل بيد اله عادل وفي)¹³.

وهكذا، فأف الفكرة التي حكمت التراث الديني المسيحي، والتي تقول ان يد الله تعمل بصورة غامضة فوق ادراك البشر، كانت هي السائدة عند الامريكيين منذ ان وطئت اقدامهم ارض العالم الجديد. وقد عمل هذا الادراك، متفاعلاً مع فكرة (القدر المبين)، على دعم سياسة احتلال ارض العالم الجديد بكاملها، كما دعمت سياسة التوسع خارج حدود القارة، لتنتهي اليوم الى الهيمنة العالمية لاقامة الامبراطورية الامريكية، وبما يتوافق مع الغموض الطوباوي لفكرة التدبير الالهي للكون، الذي تضطلع به وبتكليف الهي، الولايات المتحدة الامريكية.

وعلى الصعيد الخارجي، تستمد اطروحة (ضرورة استمرار القطبية الاحادية) و(ادامة الهيمنة الامريكية)، مقوماتها الفكرية من هذه المعتقدات الدينية التي شكلت الاساس الايديولوجي للسياسة الخارجية ومنهج التفكير في رسم استراتيجية الولايات المتحدة الامريكية. فمن اجل تحقيق فكرة (القدر المبين) و(التدبير الالهي للكون) و(خطة الله في الارض)، يجب ان تبقى الولايات المتحدة هي الاقوى عسكرياً، ويجب ان تحتفظ بحقها في الدفاع عن نفسها، كما يجب ان تبادر بالمعالجات العسكرية-

الوطنية (ان مسؤوليتنا تجاه التاريخ اصبحت واضحة جداً: ان نرد هذه الهجمات ونخلص العالم من الشر) وعلق الصحافي (وود ورد) على ذلك بالقول (كان الرئيس بذلك يطرح مهمته ومهمة الامة كلها ضمن الاطار العام لرؤيا خطة الله الكبرى للكون)¹⁰. وفي رأي (هيل) ان الادارة الامريكية خالفت آراء كثير من القادة العسكريين الامريكيين واستخفت بالملايين من الامريكيين وغيرهم الذين يعارضون الحرب ضد العراق. واعتبرت هذه الادارة ان الامم المتحدة لا دور ولا قيمة لها في قرار الحرب، وفي هذا القرار، ليس من المستبعد ان يكون بوش مصمم، بوعي او بغير وعي منه، على تنفيذ خطة الله. ان سياسته العاتية حيال الشرق الاوسط تدل على هذا وعلى انه يعتبر نفسه مكلفاً بمهمة من الله. ويلخص (هيل) الحالة الراهنة في امريكا الآن بالقول، ان التراث اليهودي-المسيحي تزج به عناصر مارقة متطرفة الى الهاوية وتزجنا نحن معه¹¹.

وفي مقال كتبه (جاكسون لير) في صحيفة نيويورك تيمز بتاريخ 2003/3/11 وقبل الحرب ضد العراق بسبعة أيام فقط جاء فيه: ان بوش، عندما كان حاكم ولاية تكساس، صرح بأعتقاده ان الله اراد منه ان يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية. وقد اصبح هذا الاعتقاد واضحاً بأنه ينفذ ارادة الله بعد احداث أيلول. وانه صرح مراراً انه يقود حرباً عالمية ضد الشر. وفي سياق الاعداد للحرب ضد العراق

1. إيمان نابع من اعتقاد ديني بأن الوضع الانساني يعرف بأنه اختيار بين الخير والشر، وان القياس الحقيقي للشخصية السياسية يوجد في استعداد الخيرين انفسهم لمواجهة الاشرار.

2. التوكيد بأن المحدد الجوهرى للعلاقة بين الدول هو القوة العسكرية والرغبة في استخدامها.

3. التركيز الاساسى على الشرق وسط والاسلام العالمى باعتبارهما يمثلان التهديد الرئيسى للمصالح الامريكىة في الخارج¹⁵.

اما رؤيتهم لموضوعات السياسة الدولية، فتكشف عنها دراسة ارسلت الى الرئيس بوش الابن في الايام الاولى من فترة رئاسته الاولى، اعددها مجموعة من المحافظين الجدد ينصحونه فيها ان لا يلتفت كثيراً الى مفاهيم (الاستقرار) و(امكانية تحقيق الامن الدولي) ولو بمضمونه النسبي. وان (العلاقات الحسنة) مصطلح غريب مشكوك فيه. وان مفاهيم (كالامن الجماعى) و(بناء الثقة) و(الحوار) و(الاجماع) كلها مفاهيم لا تعمل الى حد كبير في عالم اليوم¹⁶. وان عملية السلام في الشرق الاوسط تعتبر مفهوماً غريب يسعى اليه دعاة السلام المرتدون¹⁷. وفي نهاية الستينات وبداية السبعينات كانت رؤيتهم للمسائل المثيرة للتحديات التي تواجه الولايات المتحدة تنحصر في قضيتين، الاولى، ضرورة الدفاع الثابت عن اسرائيل، وان لا تقدم اسرائيل تنازلات لصالح الفلسطينيين، وان تلتزم (بحقها) في ارض الميعاد. اما القضية الثانية فهي

الاستباقية. ومثل هذا التشديد على ضرورة استخدام القوة يمثل نقطة الدخول الى رحم المنهج المحافظ الجديد الذي يبدي تشاؤماً عميقاً بشأن الطبيعة الانسانية والمجتمع الانساني. اذ على الرغم من أنهم يعلنون ان رسالتهم تدعو الى (الحرية والديمقراطية وحقوق الانسان)، الا ان ذلك لا يعدو ان يكون دعوة خطابية الى حد كبير. فالسياسات التدخلية والاملائية، ومحاولات فرض النموذج الليبرالى، حتى لو تطلب الامر استخدام القوة العسكرية، تشكل مفارقة تنطوي على تناقض كبير بين الخطابات السياسية المعلنة والنماذج التطبيقية للسياسة الامريكىة على ارض الواقع.

من جانب آخر، تتحدد رؤية المحافظون الجدد للعالم بكثير من الارتباب والشك فالمجتمع الدولى، مجتمع فوضوي تسوده البدائية والتآمر والصراع. انه مجتمع تصارعى وفقاً للنموذج الهوبسى، وتشكل فيه المنافسة العسكرية الدائمة من اجل السيطرة المعيار الاساس. العالم الذى نعيش فيه، من وجهة نظرهم، يستحيل فيه الاعتدال بين مجتمع الامم وتغيب فيه الثقة بين البشر. وبرؤية أكثر تشاؤمية يذهب (كنيث اولمان) وهو من المحافظين الجدد، الى القول (ان الامن قد لا يكون قضية آمنة بحد ذاته، وعلينا ان لا نحاول اقناع الناس ان الامور اخذه بالتحسن)¹⁴. وكما يذهب (ستيفان هابر) فأنا المحافظين الجدد يلتقون حول ثلاث موضوعات رئيسية:-

مع العالم الخارجي، ويجعلها تعيش في مناخ من عدم التسامح مع الغير، بل ان دعاة الايديولوجية المحافظة الجديدة يتحدثون عن الحرب العالمية الرابعة. ذلك انهم يعتقدون ان التحديات التي تواجهها الولايات المتحدة ذات طابع عسكري اساساً وان النصر لا يتحقق الا بالقوة العسكرية وحدها. ومثل هذه الاطروحة تقودنا الى استنتاج منطقي هو، اذا كانت اداة السياسة السائدة هي القوة العسكرية، يكون من الطبيعي ان عقلية هذه السياسة هي البحث عن أعداء.

ان مقولة بوش الشهيرة (من ليس معنا فهو ضدنا) والتي اطلقها في اعقاب تفجيرات الحادي عشر من ايلول/ سبتمبر 2001، تعطي توكيداً واضحاً لهذا النمط من التفكير. فأما ان تكون معنا (بكل ما يحمله المعنى من تميش للشخصية السيادية للآخر، وضمان ولائه وتبعيته السياسية) او ان تكون عدواً لنا (بكل ما ينطوي عليه المعنى من تضاد وتصارع واحتراب). وهذه الحدية في التفسير الاحادي للعلاقات الدولية، مع غياب الوساطة في التعامل الدولي، كانت، وما تزال، احدى اهم عوامل الدفع باتجاه التشدد. فالوساطة تفترض ان يكون هناك طرف معادل لتحقيق التوازن. وغياب هذا المعادل الدولي لا يوجد هناك توازن. وغياب التوازن يعني انه لا يوجد هناك وسطية، او مواقف مرنة. وهذا بدوره يقود باتجاه التفرد ويعزز من قناعة التمسك به.

وهكذا بنيت الاستراتيجية الامريكية بعد حقبة الحرب الباردة، وفي عهد المحافظين الجدد، على فكرة الاستعداد الدائم للحافز الخارجي، الذي هو بطبيعته عدواني. والاستعداد الدائم، يعني ان تكون الولايات المتحدة قادرة على خوض غمار الحرب

ضرورة التصدي للاتحاد السوفيتي، دولة الشر ومعقل الفكر الشيوعي. وعلى هذا كانت نظريتهم لسياسة الانفراج تذهب الى انها سياسة تفتقد الى الجرأة والعزم والتصميم، وانها مترددة وواهنة. هذا المشهد اعيد مرة اخرى في التسعينات، حيث كانوا يدعون (تنتياهو)، وبقية القيادات الاسرائيلية، للابتعاد عن سلام اوسلو، والى المزيد من التشدد ازاء المطالب (المفتعلة) للفلسطينيين. اما الخطر الشيوعي-السوفيتي الذي تلاشى في حقبة التسعينات من القرن الماضي، فإنه استبدل بتحد جديد هو الخطر الاسلامي، او الاسلام الاصولي¹⁸.

وفي اطار هذه الايديولوجية البتي يعتنقها المحافظون الجدد يلعب الهاجس الامني دوراً كبيراً في صياغة عقيدة عسكرية تعتنق فكرة الحرب بحماس شديد. اذ يرون فيها الخيار الاكثر منطقية في عالم مضطرب لا تحكمه الا القوة العسكرية التي تنفرد بمتانة بنائها الولايات المتحدة الامريكية. ويقدر التعويل المفرط على القوة العسكرية، باعتبارها أول اداة، وليس آخر اداة، يلجأ اليها في مواجهة مجموعة واسعة من التحديات السياسية، ثم شكوك تطرح حول جدوى وفاعلية الادوات غير العسكرية. فالدبلوماسية لا يمكن الوثوق بصداقة نجحها فحسب، بل ينظر اليها بمثابة قيد متعب للاحادية القطبية الامريكية.

ولا يشعر المحافظون الجدد بالقلق من ان ذلك كله يضع الولايات المتحدة في حالة توتر دائم

توصلت اليه التكنولوجيا العسكرية، كل ذلك يؤشر لنا ان المحافظين الجدد يملكون فكراً تسلطياً يسعون من خلاله لتحكم بمقدارات العالم ومصائر شعوبه²⁰.

ان استراتيجية الحرب الوقائية والضرية الاستباقية تبدو لنا مثيرة وملفتة للانتباه. اذ اريد بما، من بين مقاصد عدة، استهلال عصر جديد مصمم وفق افكار نخبة قيادية امريكية يمثلهم المحافظون الجدد، تعطى للقوة العسكرية اولوية على بقية الخيارات غير العسكرية. والغاية من وراء ذلك استثمار اقصى ما يمكن استثماره من حالة الانفراد الامريكي، وتوجيه رسالة الى الآخرين مفادها ان الولايات المتحدة هي القوة الوحيدة القادرة على حل مشاكلها حتى وان تم ذلك بعيداً عن مشاركة الآخرين من حلفائها. بمعنى تأكيد وترسيخ مذهب الاستثنائية الامريكية بأمتياز ومن دون منازع. وان الولايات المتحدة تتخذ هذا الموقف بالمبادرة بعمل عسكري وقائي لا لحفظ امنها فقط، وانما للنهوض بمسئوليتها في الدفاع عن الحرية والانسانية والمبادئ والقيم الديمقراطية ضد العنف والعدوان. فضلاً عن ذلك، تأكيد وتمجيد النزعة الامريكية المميزة التي يضفي عليها (بوش) طابعاً قيادياً لمساعدة الآخرين عندما يقول في خطابه الذي نشرته (النيويورك تايمز) في عددها الصادر في 9 تشرين الاول/ اكتوبر/ 2002) بعزيمتنا سنعطي للآخرين قو. بشجاعتنا سنعطي للآخرين املاً، وبأعمالنا سنحفظ السلام ونهدي العالم الى زمن افضل... فليبارك الله امريكا).

خارج حدودها الاقليمية. لكن، ماهي طبيعة هذه الحرب؟ انها حرب وقائية تخضع لتقديرات ونوايا سياسية... انها حرب ليس لها ابعاد نهائية، كما لا يوجد تحديد موثوق به ويمكن الاحتكام اليه لطبيعة العدو الخارجي سوى (الارهاب)، الذي يبقى هو الآخر، من حيث تشخيصه هلامي، واحياناً بلا هوية محددة للتعريف به، فأن الحرب ضده لا يوجد لها تعريف سوى، الحرب على الارهاب، التي تحمل اكثر من معنى في تفسيرها. وبالتالي، فأن النصر فيها، يبقى هو الآخر، بلا تعريف، طالما لا توجد لها نهاية منظورة¹⁹. اذن، نحن والحالة هذه، امام حالة دائمة من اللامن، (رغم مظاهر التفوق في القوة العسكرية الامريكية، التي يفترض بها ان توفر للولايات المتحدة الامن المطلق، او الامن النسبي المقبول والمطمئن على اقل تقدير)، ومبعث هذه الحالة من القلق الامني، اريد لها ان تكون مزمنة، والذي يبعد انه مبالغ فيه احياناً، هو عدو لا تعرف هويته، فضلاً عن انه قادر على ان يتجدد ويتوالد باستمرار.

هذه الطروحات التي يؤمن بها المحافظون الجدد ويبنون بها ويدعون اليها، بكل مقوماتها الفكرية-الدينية المرتكزة على عقيدة عسكرية تؤمن لها الحضور الدائم والانتشار العالمي، والتصدي لكل من يعترض عليها، او يحاول عرقلة سبيلها واعاقه مسيرتها حيث يصنفون تحت مسمى (الارهاب) ويعاملون بذرائعية (الحرب الوقائية) و(الضرية الاستباقية) المسندة بأحدث ما

تستطيع كوريا الشمالية ان تبرر ضربة ضد كوريا الجنوبية متبقة عملاً أمريكياً ضد كوريا الشمالية. كما كان يمكن للعراق ان يبرر ضربة استباقية ضد الولايات المتحدة او حلفاءها مستبقاً ما كان في نهاية الامر نية امريكية معلنة بوضوح لشن حرب على العراق.

ان تتمتع امريكا بما لا يحق لغيرها التمتع به من (حقوق) يشكل احد اهم المآخذ والعيوب على السياسة الامريكية عند تعاملها مع غيرها من اعضاء المجتمع الدولي. فالازدواجية والكيل بمعيارين كانا على الدوام مصدر ازعاج وقلق وعدم رضى، ان لم نقل سبباً في اثاره روح العداة ضدها. وهكذا، فأن عجز امريكا عن رؤية واقعتها من خلال عدسة الحقيقة والعدالة والمساواة، بل من خلال الحرية والديمقراطية التي تطالب بها، هو السبب الذي يجعل حتى اصدقاءها وحلفاءها يعتبرونها قوة متغترسة وظالمة في أغلب الاحيان.

¹ انظر للتفاصيل: عبد العزيز سليمان، تاريخ الولايات المتحدة الامريكية، دار الفكر العربي، القاهرة 1999، ص32 وما بعدها.

² راجع بذلك وللمزيد من التفاصيل: توماس تومسن، الماضي الخرافي للتوراة في التاريخ، ترجمة عدنان حسن، دمشق، دار القدس، 2001، ص23 وما بعدها.

³ عبد العزيز سليمان، مصدر سبق ذكره، ص27.

⁴ باربرا فيكتور، الحرب الصليبية الاخيرة، ترجمة، احسان عمر، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2007، ص7.

⁵ أخذت هذه الاقتباسات من المؤلف القيم للاستاذ الدكتور فؤاد شعبان، من اجل صهيون، دار الفكر في دمشق، ط3، 2003، ص7.

⁶ نفس المصدر، ص7.

⁷ انظر في كل ما تقدم نفس المصدر، ص8.

⁸ الاقتباس موجود عند:

Vernon. Lewis Barrington: Main currents in American thought, Harcourt Brace, 1972, p.17.

بهذا الخطاب يبدو ان (بوش) اراد ان يخلق قناعات ترى في الولايات المتحدة، وليس غيرها، الدولة المخلصة للعالم والهادية له على طريق الخير والسلام، ولكي يكتمل هذا الخطاب السياسي، وغيره من الخطابات الاخرى، بأجائه الديني الذي يجعل من امريكا الدولة-المرجعية-المخلصة والمنقذة لعالم مليء بالشور، وحتى يأخذ كامل ابعاده بانجاز مهامه الرسالية الخلاصية، فأن المسعى الامريكي ينبغي ان يقتزن بفعل عنيف متشدد ينهي كل من يعترض سبيله المحتوم والمقرر بمشيئة الارادة الالهية.

هنا تكون الحرب الاستباقية واحدة من اشتراطات الفعل الاستراتيجي المغذي بالايديولوجية الدينية والذي يراد به، كما يذهب دعاؤها، تصفية العالم وتنقيته من ذيول (قوى شريرة) التي خلفها عالم ما بعد الاتحاد السوفيتي. هذه الذيول او القوى ستأخذ فيما بعد تسمية (الدول الارهابية) او (الدول الراعية للارهاب) حتى لا تواجه امريكا عقبات في تعميم مشروعها الامبراطوري.

وهكذا فأن اعتناق امريكا استراتيجية الحرب الوقائية ارسى سابقة بالغة الاهمية وهي انها اعطت امريكا، بسبب من استثنائيتها لفريدة، حقاً تفرد به لوحدها دون غيرها. فلو جارينا هذا المنطق الامريكي المجرد من الاستثنائية والتفرد، فأن باكستان مثلاً، تستطيع ان تقدم حججاً لمصلحة حرب وقائية ضد الهند، مستبقة ضربة هندية في كشمير. او

⁹للتفاصيل راجع:

Lawrence E:Harrison, Culture Matters, HOW Values Shapes human progress, Basic Book, N.Y, 2000, p.27.

¹⁰تقلاً عن فؤاد شعبان، مصدر سبق ذكره، ص232.

¹¹نفس المصدر، ص232-233.

¹²نفس المصدر، ص233.

¹³نفس المصدر، ص233.

¹⁴ Dan Milbank, The UN on the loos, Commentasry. July August, 2002, p.2.

¹⁵انظر:- سستيفان هابر وجوناثان كلارك، التفرد الامريكسي:- المحافظون الجدد والنظام العالمي، ترجمة:- عمر الايوبي، دار الكتاب العربي، بيروت 2005، ص20. وكذلك ينظر المزيد من التفاصيل حول فكر المحافظين الجدد، (توني بليز، كونداليز رايز، مارغريت تاتشر) المحافظون الجدد، نقله الى العربية، فاضل جتكر، دار نشر العبيكان، بيروت 2004، ص2 وما بعدها.

¹⁶ Robert J.Lieber, the Folly of Containment, Commentary April, 2003, pp.15-21.

¹⁷ Normanpodhorte, Oslo, The peace mangers return Commentary, October, 2001, pp.33

¹⁸راجع:-

Robert J.Lieber, op.cit, p.23.

¹⁹قارن بهذا المعنى، عصام نعمان، امريكا والاسلام والسلاح النووي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت 2007، ص26 وما بعدها.

²⁰انظر للتفاصيل باربارا فكتور، مصدر سبق ذكره، ص21.